مراجعات

في رسالة الخطابي : بيان إعجاز القرآن.

بقلم محمود توفيق محمد سعد

[الحلقة الأولى]

توطئـة

بـــسْمِ اللهِ الرّحمَنِ الرّحِيم

ينطلقُ أبو سُلَيْمان الْخَطَّابِيّ مِن منطلقِ أهلِ الحديثِ واللّغةِ والفقهِ من أهلِ السنةِ والجماعةِ، وهذه الأصولُ الأربعةُ: الحديثُ واللغةُ والفقه ومعتقد أهل السُنة هي الْمكونُ الرئيسُ لعقلِه وذوقِه ولسانِه ، وهذا يجعلُ له خصُوصيةً منهجيّة في البصرِ بإعجازِ بلاغةِ القُرآنِ الْكريم .

والْمُناظِرُ ما جاءَ بِه الْخطّابيّ ُفي رسالتِه :" بيان إعجاز القرآن" وما جاء بِه عصرِيّه أبو الحسن الرمانيّ (ت:٣٨٦هـ) في رسالتِه:" النُّكتُ في إعجازِ القرآن" والتي حظيت بعناية شارحٍ لها ، بينا لم تحظ رسَالةُ الخطابي بشارح كمثل شارح "النكت" – المناظرُ يدركُ الفرقَ المنهجيّ بيْن الرسالتين: رسالةُ الخطّابيّ تُعلّمك حُسنَ النّظر في البيان القُرآنيّ ، بيْنما رِسالةُ الرُّمانيّ تحدِّثك في الأساليبِ البَلاغيّة الّتي قامتْ في البيان القُرآنيّ المُعجز، فرقٌ بيْن مَن يُعلّمك حُسنَ النّظرِ ، ومَنْ يَنظُرُ لَك ، فيُحدّثك بما أنتجَه نظرُه . ولِذا كانتْ رِسالةُ الرمّانيّ صالحةً لمنْ همّهُ العِلْمُ بالأساليبِ البلاغيّة الّتِي في البيانِ القرآني

وكانتْ رسالةُ الخَطَّابيّ غِذاءً لِمَنْ شاءَ اكْتسابَ مَهارة حسن النظر والتبصّر والمرُاجعةِ والمفاتشة، فهي رسالةٌ أقربُ ما تكون إلى علم الأصول المنهجية ، تكلّمك في صِناعةِ العلمْ ، والرُّمانّي يُكلّمك في منتجِ العلمِ.

المهمّ أنّ الخطابيّ إنّما صدر عقلًا وذوقًا ولسانًا عن أصول النّظرِ وَالإبانة وضوابطهما عند المحدّثين ، والْفقهاءِ واللغويينِ وعلماء العقيدة منْ أهل السّنة والجماعة ،وليس كما درج عليه علماء الكلام،وهو نفورٌ من منهجهم، فكان منهج المحدثين واللغويين نحوهم

أثرُه في نظرِه في بيان إعجازِ القرآن فلم يلجأ إلى التورك العقلي في مناقشاتِه واستدلالته ([1])

[السبيل إلى الإفادة من رسالة الخطابي]

رسالة الخطابي السبيلُ إلى الإفادة المُثلى منها أن يسلكَ الطالبُ الذي يسعى إلى أن يكون يومًا عالمًا ربانيا يخرج الناسَ من الظلمات إلى النور احتسابًا بالكتاب والسنة بلسان حاله ومقاله أن يعتمد في مدارسته رسالة«بيان إعجاز القرآن» للخطابي، وما شاكهها من أسفار الأعيان من أهل العلم على منهاج ذي مراحل ثلاث :

الأولى يحيط بالقضايا العلمية التي اشتملت عليها الرسالة إحاطة مفاتشةٍ ومناظرة ومناقدة .

الثانية : البصر بمنهاج تفكير المؤلف في القضايا .

الثالثة : البصر بمنهاج التعبير عما اصطنعه المؤلف في فؤاده من الآراءِ في القضايا والمسائل التي تضمنتها الرّسالة ذلك فيما أذهب إليه هو المنهاج الأمثل للقراءة الاحترافية«العبادية»لأسفار الأعيان من أهل العلم.

---

[1]) لم تحظ رسالة «بيان إعجاز القرآن» للخطابي من أستاذنا شوقي ضيف - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – في كتابه«البلاغة تطور وتاريخ» ما تستحقه من المدراسة، فقد اكتفي بالعرض السريع لما جاء من القضايا في الرسالة ثمّ عقبُ بقوله« والرسالة بذلك لا توضح إعجاز القرآن البلاغيّ توضيحًا كافيًا وإنما الذي يوضح ذلك أبحاث المتكلمين لدقة تفكيرهم من قديم في مباحث البلاغة»البلاغة تطور وتاريخ . دار المعارف(ط:٩). ص:١٠٣ .

وهذا قولٌ فيه نظرٌ ،ومن يقارن صنيع الخطابي بصنبع الرّماني المتكلم المعتزلي، يوقن أن رسالة الخطابي أنفع للعقل البلاغي تفكيرًا منهجيًا. ورسالة الرماني أنفع لدارس البلاغة أساليبَ وشواهد .

الرمّانيّ سمّى رسالته «النكت في إعجازِ القرآن» فهدَى إلى أنّه ساعٍ إلى ذكر نكت ،وليس ساعيًا إلى اقامة منهاجٍ يُبين عن الإعجاز، فهو يكلمك في بعضِ وجوه الإعجاز ، ولذا اختار أكثر الأساليب البلاغية التي يبرز فيه الإعجاز البلاغي للقرآن .

والخطابيّ سمّى رسالته «بيان إعجاز القرآن» فهدى إلى أمرين رئيسين :

الأمر الأولُ : أنّه ساعٍ إلى القول في المنهج مبينا عن الإعجاز ،وليس بساع إلى أن يتكلم في الأساليب البلاغية التي يتصمنها الإعجاز البلاغيّ

والأمر الآخر أن بيانه هذا حقه على قارئه أن يمارسَ تبيينه فكل بيانٍ يقتضي تبيانًا لأن الشأن في البيان أن يكون مكتنزًا دقائق ولطائف، يسعى متلقيه إلى تبيينها .

وفي القراءة ذات المراحل الثلاثة التي أشرت إليها فوق أنها ذات نفع عميم قويم لصانعها ، فهي التي تهيؤه أن يكون يومًا من العلماء الربانيين فإن فيها برّل بصانع الكتاب، فهوأحسن إلينا بتأليف،ونشره، فحقه أن نقابل ذلك بما ينفع كتابه ، فكلّ من يقرأ كتابًا ، ولا يزجي إلى الكتاب شيئًا من تحليل مجمل أو تقويم عوج أو تبيين غامضٍ أو تقريب بعيدٍ أو سدّ خللٍ أو تكميل ناقصٍ . هو غير موفٍ حقّ صانعِ الكتاب عليه، وغير شاكره على ماأسداه إليه من خير، وقد سنى القرآنعدم شكر النعمة «كفرًا»

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)(النّمل:٤٠)

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان:١٢)



(قولٌ في مصطلح إعجاز القرآن)

هذا المصطلح لا يتوارد فيما جاءت بِه مقالات أهل العلم وأسفَارهم ، فالأستاذ محمود محمّد شاكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – سعى إلى أن يتبين مولد هذا المصطلح ، فانتهى بِه سعيُه إلى أنّ هذا مصطلح «إعجاز القرآن» ولد على يد ابي عبدِ الله محمّد بن يزيد الواسطي (ت :٣٠٦هـ) ([1]) في كتابِه «إعجاز القرآن» « وكان لهذا الكتابِ شهرةٌ مستفيضةٌ عند المتقدمين من أصحاب البلاغة ، وكلهم أغار عليْهِ فيما كتب ، فأنا أظنُّ أنّه هو أول مكم استخرجَ ما كان دانيًا في كتبِ أبي عثمان وتجاوزه لسانه فولد لفظ «الإعجاز» و«إعجاز القرآن»([2])

والقرن الثالث الهجري عصرٌ كثُر فِيهِ القولُ في شأنِ القُرآن العظيمِ ، ولا سيّما عندَ أهلِ الكلامِ ، والفرقِ ، ولاسِيّما المعتزِلَة، ونبتت فيه مقالاتٌ عديدةٌ متنوّعةٌ ، وغيرُ قليلٍ منها متناقضٌ متشارد، فهذا العصرُ والعصران التاليان له كانت حركةُ العقلِ العربيّ فيها نشطةً إلى غايةٍ ، وكانت حريّة التفكير التي تجاوزت إلى حريّة التعبير قد بلغت مبلغًا لم تبلغه فيما تلاه هذه القرون الثلاثة ، فنتج من هذه الحرّية فيضٌ من التنوع العلميّ والمعرفِيّ ، بيْد أن فحولَ أهل السنة والجماعة كانوا من الاقتدار العلميّ والشجاعةِ والفتوة والفحولة والعزائم التي لا تلين ممَّا جعل الباطل الذي تنتجه حرية التفكير يتهاوى تحت سفح الجبال الرّواسخ الشوامخ من حقائق العلم الّتي كان ينتجها أولئك الأئمة من فحول علماء أهلِ السُّنة والجماعةِ ،وهذا أمرٌ في كمال الصحة العقلية والمعرفية والثقافية والعلمية ([3])

---

[1]) أبو عبد الله: محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي المعتزلي سكن بغداد و توفي بها. له كتاب «إعجاز القرآن» وقد شرحه عبد القاهر شرحينوألصل والشرحان مفقودان ولهكتاب في علوم القرآن سمي بالزمان، وكتاب في «الإمامة» و «الزمام» وكتاب «الرد على قسطا بن لوقا». وكان ذا علم وافر أخذ عن أبي علي الجبّائي ترجمته في الوافي بالوفيات ٨٢:٣، وفهرست ابن النديم ١٧٢ولسان الميزان١٧٢:٥.

[2]) مداخل إعجاز القرآن.ص ٢٨ وانظر أيضا ص:٧٧-٧٨

[3]) أذهب عنْ وعيّ واقتِناع وليد نظرٍ أنّ من الخيرِ للأمة الْمسلمة عامّة والأمة العربية خاصّة ألاّ تكتفي في مواجهة الباطلِ الذي تُنتجه بعضُ المُمَارسة الضَّالة - عمدًا أو غفلةً أوجهالةً - لِنعمة حرية التفكير والتّعبير أن تتصايح بتكفير أولئك وتفسِيقهم ولعنهم ،وتحذيرِ النَّاسِ من الاستماع إليهم ، ومقاربتهم ، فكلُّ ذلك مهما عظم

ليس بملكك أن تمنع الإعصار من أن يهبّ لكن بملكك وفريضة عليك أن يكون بيتك (قلبك) جبلا راسخا شامخا شموخَ ورسُوخ الجبال التي تراها حَولِ البيت الحرام في أم القرى، ألا نعتبر بهذه الجبال ، وما فيها من جمالِ معنوي يلتذُ به القلب المعافى من داءِ الغفلة والهوى والعصَبيّة .

واذا ما كان مصطلح "إعجاز القرآن" نبت في مستهلّ القرنِ الثالثِ الهجري ، فكلمة "إعجاز" يدلُّ ظاهرُها أنّ منْ تحدّي بالقُرآن حاول فعجز ، لأنَّه لا يقال أعجزَه إلا إذا حاول المتحدَّى فثبت له وللعيانِ عجزُه عمّا تحدّي بِه .

أثبتَ أنّ العرب حين نزلت آياتُ التّحدي وكافحهم بها النّبيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - حاولوا فعجزوا ،أمْ أنَّ المحاولة لم تكن مشهوده ، ولكنَّها قامت في نفس من تُحُدُّوا ، فأيقنوا بالعجز ، وتبيّن لهم ضعف ملكاتِهم العقليّة واللّسانية زرافاتٍ

قيامنا به صباح مساء ، فلن يصدّ وحدَه الناسَ عنهم, لن يحميهم من عواديهم ، بلْ ربّما دفعهم إلى مخادنة ما يُنتجون لأنهم لم يَجِدُوا منّا ما يُخادنوه من الحق ، لم يجدوا منّا إلا التصايح باللّعن والتكفير والتخوين. .

الصراط المستقيم أن نقيم حصُونًا علميّة في عقول الناسِ ووقلوبهم بما نتتجه من حقائقِ العلم ويقينه بلسان مبين يقرّب الأمر ويقرّره ووطّنُه ويُغازرُه ويفعّله في قلوب الناس بالحكمة والموعظةِ الحسنة ، وبسبيلٍ جانباه المحبة والرفق بالنّاس .

اللعن والتكفير والتفسيق والحكم بالّردّة والخيانة للوطن وما لا أحيط بذكره من ألفاظ الاعتراض التي يمارسها الدُّعاة على منابرهم وغير قليل من أهل العلم في معاهدهم ومنتدياتهم لن يحدث حماية للحق ولن يحفظ الناس من مهلكة الأباطيل .لتنظُرْ ماذا كان حال الإمام أَبي حنيفة والشافعِي وأحمد والبخاريّ وغيرهم أزاءَ الفِتَن الْعَقَدِيَّةِ وَالفكريّة والمعرفيّة في عصرِهم ، كانوا يُنتجون ما يُجند أباطيل الآخرين.

ألا ترَى فعلَ كتاب" الرسالة "للشافعيّ في أَفاعيل أهلِ الباطل الذين يتخذون الإسقاط على النصّ سبيلاً إلى تدسّسِ باطلِهم إلى عقُول النّاسِ ، كانت" الرسالة "للشافعي سلاحًا تدميريًّا لأفاعيل الفرقِ الكلامية المؤسّسَةِ علَى الإسقاط ، لنّه جعل فاعليّة كتابه الرسالة متمثّلاً في الاستنباط من النصّ ،وهو استنباطٌ مؤسسٌ على إحكام أصول الفهم ، فلَم ينفع أهل الإسقاطِ تناديهم وتناصرهم ، فكانت كلّما دخلت أمّة لعنتْ أختها وكفرتها ، بينما أهل الاستنباط المؤسس على إحكام العلم والاستثمار لأصول الفهم شعارهم رأي صَوابٌ يحتمل الخطأ ، ورأي غيري يحتملُ الصّواب. وهذا لا يقال في بابِ العقيدة لأنَّه ليس محلّ اجتهاد ، ولا في ما هو فريضة قطعيّة الثّبوتِ ، وفيما هو حلال قطعيّ الثبوت ، بيّن الدّلالة وما هو حرامٌ قَطْعِيّ الثُّبوتِ بيّن الدلالةِ.

إنّما يقال فيما يصلحُ فيه الاجتهاد ،والمناظرة .من شؤون الحياة التي لم يأتِ في كتاب الله ما هو بيّن الدلالة محكمها أو مفسرها وما لمْ يأتِ فِي سنة رسوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - ما هو قطعيّ الثبوت بيّن الدّلالة .

ووحدانا عن المُقاولة والمكافحة، وكانُوا صادقين في إحساسهم ، فخضعُوا له مخافة المعرَّة، لأنّ معرَّة البيانِ عندهم من معرّة العرضِ والخلق ،وتلك التي دونها الموتُ عند العربيّ القحّ يوم أَنْ كان العربُ أقحاحًا نفسًا وعقلا وقلبا وهمًّا ولسانا .
فدلّ شاهدُ الحالِ علَى أنّهم لما سكتوا ورغبوا فيما هوغيرُ المعارضة إنما اختاروا غير المعارضة ليقينهم بعجزهم عنها، فليس أحمق من رجل يقدر على أَنْ يَنْتَصِرَ بلسانِه فيبلغ طَلِبته ، فيدع ذلك إلى أن ينتصر بسِنانه ، وهو لا يَأمنُ عقبى اختياره الانْتِصَارَ بِالسِّنانِ ، وما كانت العرب بتلك المنزلةِ مِن الحُمق ، فهذا قاطع بَانَّ ما فيهم من الحكمة دفعهم إلى أن يُطيقُوا كُلْفَةَ الانتصارِ بالسِّنان على كُلْفَةِ الانتصار باللسان ليقينهم بمعرة الهزيمة النكراء في مساجلة اللسان .
الإعجاز إذن هو أن يوقن الْمتحدّى أنَّه لا يستطيع البتَّة أَنْ يعمدَ إِلَى شيْءٍ مقاربٍ مقاربةً ما يُمكنُ أَن يُشاغبَ بها له أَنصاره ، فهو على يقين أنّ انصاره لن يستطيعوا الشغب بما يكونَ مِنْهُ ؛ لجهارة المعرّة فيه .
يقُينُه هذا يمنعُه منْ ذاتِ نفسِه أن يحركَ لسانَه بشيْء فيما بيْنه وبيْن نفسِهِ ، فضلا عن أنْ يعرضه على من يُخادنه ويصافيه ودّه، وسرّه . فهذا عجزٌ يشبه الاستخزاء الذّاتي المؤسّس على يقين ، لا على غلبةِ ظنٍّ أوْ توهّمٍ .
وهذا فيه آية لمن قال لهم إنَّه كتاب الله - سُبْحَّانَهُ وَتَعَالَى – الذي أنزلَه عليْه لهم ليكون برهانًاعلى صدق إعلامه لهمْ أنّه رسُول الله تعالى إلى الناس أجمعين إلى قيامِ الساعة.

*****

ومصطلح «إعجاز القرآن» أضيفت فيه كلمة "إعجاز" إلى"القرآن" من قَبيل إضافة الشَّيْءِ إلى ما يكونُ بِه، فليس القرآنُ هُو المُعجز، بل الله تعالى هو الذي أعجزَ العالمين بالقرآن : ببلاغته وكلِّ شيْءٍ فيه، فالله تعالى هو المعجز، والعالمون هم المُعجَزِين،والقرآن : ببلاغته وكلُّ شَيءٍ فيه هو المعجز به .
وبلاغة القرآن هي الوجه المطرد المحيط القائم في كل كلمةٍ في سياقها، وكل جملة، في سياقها،وكل آية في سياقها،وكلّ نجم في سياقِه ،وكلّ معقد في سياقِه وكلّ سورة ،وليس شيْءٌ بتّةً في القرآن إلا وهو معجز، ولكنّهُ قد لا يكون مناط التّحدّي ، فمعانيه على

تنوعها معجزة، ولكن التحدي لم يكن بها، فالإنصاف يقضى بألّا يُتحدى بها ، ذلك أنّ هذه المعاني المكنوزة في نظم القرآن ليست مما تعرف العربُ. ولذا قال الله تعالى :

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[هود:١٣]([١])

العربُ لا تعرف من القرآن إلا " النظم" فوقع التحدي به، وكل ما عدا النّزك العربُ لا تعرفه، ومن ثم لم يقع به التحدّي وإن كان يقينًا هو معجزٌ كالنظم. ، ففرقٌ بيّنٌ بين" النظم" وكل ما عداه من القرن: النظم القرآني معجز/ومتحدًى بِه،وسائر ما في القرآن حتى رسمه،وأدائه معجز إلا أنه لم يتحدّ به.

*****

[١]) قوله تعالى «مفتريات» ليس المراد مكذوبات ،الافتراء هنا ليس معناه " الكذب" بل المعنى من معاني أنفسكم التي تختلقونها في أشعاركم ايًّا كان نوعها،ومجالها ، لم يشرط عليه شرف المعنى ونبله،ودقته وأنّه حقٌ ،وى تنفضي عجائبه ...

[طَليعةُ رسَالة الخطابيّ]

(وفرة القول في إعجازِ القرآن وتنوعه من قبل الخطابيّ)

لم يشأ أبو سليمان أن يُبين عن معنى «الإعجاز» عامة وعن معنى «إعجاز القرآن» خاصى بل استهله بقوله:« قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعد صدروا عن رِي

وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن

ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته. » ([1])

اسهلالُ يهديك إلى أنّه هذه القضيةَ قد كانت ميدان نظر فسيح متجدّد لَدَى أهل العلم قديما وحديثًا، وقوله: «قديما» يُفهم أنّه القرن الثّالث الهجري على أقل تقديرٍ ، ولا تكون قضيةٌ كذلك إلّا إذا كان فيها من الدقائق ما يرى اللاحقُ أنّ السّابق قد فاته شيءٌ جديرٌ بأن يُجلّى، ذلك أنَّ منطق العقل الفطري أن اللبيب لا ينفقُ عمره وجهده في صنع شْيءٍ قد صنع قبلُ ، وإنّما هو يبذل شيْئًا منْ عمره وجهده لما يوقن أنَّه لم يوف حقّه، فيقومُ هو إلى ذلك.

وهذا يعني أنَّ كلَّ لبيبٍ إِنّما يسبرُ غور ما قيل قبلُ ، فيرى ما استوفَي حقه ، وما لم يستوفِ ، فحرره ، ويعمد إلى أن يبذل فيه ما يليقُ بِه.

وما بلغنا معرفته من اقوال السابقين الخطابيَّ في الإعجاز جدّ قليل ، وما قاله أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)([2]) ومن قبله واصل بن عطاء الغزال (ت: ١٣١هـ) وأبو هذيل العلاف (ت:٢٣٥هـ)والنّظام : إبراهيم بن سيار (ت ٢٣١هـ) لاعلم لنا به سوى ما نقله الجاحظ عن النظام ولعل أول كتاب بلغنا رسالة حجج النبوة للجاحظ

---

[1]) بيان في إعجاز القرآن – ضمن كتاب " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " تحقيق : محمد خلف الله وزغلول سلام ط(2) سنة1387 هـ -دار المعارف بمصر ،ص 21

[2]) لقي كتاب الواسطي عناية من عبد القاهر شرحه شرحين شرحا كبيرا سمي«المعتضد» وآخر صغيرًا كمثله صنيعه في كتاب أبي علي الفاسي في النحو مما يوحي بعظيم أهمية كتاب الواسطي، أفكان لنظرية النظم الجرجانية أصل في كتاب الواسطي « إعجاز القرآن» ظ ربما
ومن الملفا للنظر أنا لا نجد في كتاب الدلائل أو الرسالة الشافية إشارة منه إلى الواسطي أو كتابه أو أيّ من شرحيه .، فلم أهمل عبد القاهر الإشارة إلى الواسطي؟

،ثم رسالة "النكت في إحاز القرآن" للرُّماني(٢٨٦هـ) ورسالة الخطابي " بيان إعجاز القرآن"

فالخطابي قرأ ما قبلَه في قضية إعجاز القرآن قراءة احترافية عباديّة تثوّر ،وتَنقُد ، وتقوم .

وقوله «لم يصدروا عن ريّ» يفهمك أنّه لما قرأ ما سبقه لم يكن فيه ما يدل على أن الذي قالوا إنما هو ثمرة تثبتٍ وتحققٍ نصي أو عقليّ . وذلك شأن غير قليل من العلوم في نشأتِه.

*****

[وجه عدم صدور السَّابقين عن ريّ في القول في الإعجاز]

ولمّا كانتْ مقالاتهم هذه خداجًا ورأَى أنَّ ما سبقه بَقيت عليه بقية ، لم يَهمِز بَل أبدى لهم عذرا « وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن ، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته. »([1])

عقبتان حالتا بيْن السابقين والصدور عن رِيّ في قضية الإعجاز :

= الأولى : تعذّر معرفة وجه الإعجاز .

إنْ أراد به ما يظهر فيه الإعجاز كما يعبر به خلفه من العلماء بقولهم : «وجوه الإعجاز » فنعم إنْ أيضًا أن أراد معرفة الوجه المحيط الكلّي فنعم أمّا الوجوه الجزئية ، فلا ريب أنّ جمهرتهم قد عرف بعضها.

= الأُخرَى: تعذُّر معرفة كيفيّةِ الإعجاز.

والكيفية هنا هي كشف سر الإعجاز الرئيس ، ذلك أنَّ الإعجاز إنّما هو فعل الله تعالىبالقرآن الذي هو كلامه . وكلامه صفته ، وكشف كيفية صفة الله تعالى أوفعله أمرٌ لا طاقة لأحدٍ بأن يدركه. مَن أدرك فعل شيْءٍ أمكنَه أنْ يأتيَ بمثله ، وذلك لا يكونُ في إعجاز الله تعالى العباد بالقرآن: بكلِّ شيءٍ فيه.

---

[1]) هذا من حسن أدب أهلِ العلم وطلبته. فليكن هذا دأبك مع الآخرين.، فكل ابن آدم غافلٌ وساهٍ وناسٍ وخطاء .وكل من ليس بنيّ هو غير معصومٍ ،ولا محفوظ، وذلك نعمة من ربنا علينا ليذكرنا بسهونا ونسياننا وخطئنا أننا بشر ، وأنت عبيده ، وأننا بهتعالى لا بنا . إنما أنا لله عبد . هذا شعارنا ، فالزم.

عبارة الخطَّابي التي اعتذر بها لسلفِه منْ أهلِ العلم عن عجزِهم عن أن يصدروا عن ريّ في قضية «إعجاز القرآن» هادية إلى أن ذلك أمرٌ لامحالة من أن يكونَ، فليس في أهل العلم من لا ينجو من ذلك العذر. فكلُّ بشرٍ خلا سيدنا رسول الله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم – يؤخذ منه ويردُّ عليْهِ . تحقِيقًا لبشريته وعبوديته .

هذا العجز سيبقى ما بقيت الحياة ، فهو – عندي- وجه من وجوه الإعجاز، كمثل وجه عجز العالمين ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً أن يستكنهوا ويستفرغوا معاني الهدى الإحسانية في سورة من السور بل في آيةٍ من آياتِه. ([1])

وهذا دالٌ دلالة بيّنة على أنّ الخطابي قد استقرأَ ما صدرَ عنْ أهلِ العلمِ من قبلِه، وفاتشَه ، وانتهَى إلى أنّ ما صَدرَ عنهم متعدّدٌ ، ومتنوعٌ ، وأنّه برغمٍ مِن ذلك بقيتْ بقيّة لم يتناولها مَن سَبق ، وهِي بقيّةٌ ليس في أمْرٍ عَرضِيّ ، بلْ في أمْرٍ جوهريّ لا يتحقّقُ الرّيّ بدونِه" .

وهذا يلفتُ انتباهَنا إلى أنّ الّذي هُو آتٍ بِه سَيسْعَى إلى تحقِيقِ بعضِ مَا فاتَ السَّلفَ أوْ فَاتَهُ السّلفُ ، وأنّه مُستكمِلٌ بعضَ ما سَبقَ، وهذا يُغرِي بأن يَسْتشْرِفَ القارئُ إلى ما

---

[1]) يقُول الخطابيّ هذا في نهاية القرن الرابع الهجري ، ومن البيّن أن هنالك علماء كثر قالوا في٧اعجاز القرآن والجاحظ الّف فيه كتاب" الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفِه وبديعِ تركيبِه "كما نصّ على ذلك في كتابِه"الحيوان تحقيق هارون .ج:١ص / ٩ ". وهو الذي قال فيه أبو الحسين ابن الخياط(ت٢٩٨ هـ) في كتابه "الانتصار في الرد على ابن الروندي الملحد ":"لا يعرفُ الْمتكلّمون أحدًا منْهم نصَرَ الرِّسَالة ، واحتجّ للنبوّةِ بلَغَ فِي ذلِك ما بلغَهُ الْجاحظُ ،ولا يُعرف كتابٌ في الاحتجاج لِنظمِ الْقُرآن وعجيبِ تاليفه ،وانّه حجةٌ لِمحمّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - على نبوتِهِ غير كتابِ الْجاحظ "

ويحسن أن تناظر مقالة الباقلاني في كتاب الجاحظ بمقالة الخياط ، فالباقلاني لا يرى فضلا لكتابِ الجاحظ.

التأمل في عنوان كتاب الْجاحظ " الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفِه وبديعِ تركيبِه "كما سَمَّاه يتساءل مانوع الاحتجاج للنظم أليس لزامًا أن يستخرج الجاحظ الحجة لنظم القرآن من النظم نفسه ، فعقله أكبر من ان يحتج للشيءِ من خارِجه ، لأنّ الحجة إذا ما كانت من الشيْءِ نفسِه لا منْ خارِجه كانت أمكن وأنجع وارفع ،، وماذا يريد بالنظم :أهو الذي نعرفه في لسان عبد القاهر أم في لسان الذين يريدون بِه بنية السورة وكذلك الاحتجاجُ لغريب تأليفه، هذه الغرابة في التأليف ما مراده به ، أمعناها أَنّ القرآن جاء بنهج في التأليف لم تعرفه العرب ، وماذا يريد بالتأليف أيريد به التاليف النصّي" بنية السورة " على نهج بديع فريد ، أم يريد بناء ما دونها من الآيات والنجوم ؟ وكذلك تقول في قوله "fديع تركيبِه" ثلاث مصطلحات : « نظم -تأليف – تركيب » وهي مصطلحات حاضرة حضورًا بيّنا في لسانِ عبدِ القاهر.

سيأتِي بِه الخطَّابيّ، وأن يفاتّشَ عمّا تجدَّد ، وعمَّا فارقِ بِه مقالَة سابقِيه. وهَذا لا يُلقِي بِها بيْن يَدَّيْ قولِه إلاَّ واحدٌ مِن رَجلَين

:الأوّلُ:غافلٌ عن خُطورة مَقالتِه هذه. لا يتحاجَزُ عَنْ مَعَرَّة إخلافِ الْعِدَةِ .

والآخرُ : واثقٌ مِنْ قُدرَتِه عَلَى الوَفاءِ بِما هُو واعدٌ بِهِ.

وحسنُ الظنّ بعقلِ الخطابيّ المحدث الفقيه السُّنّي يجعلنا نَعُدُّهُ الرَّجل الثّاني الْواثقٌ من عون ربه وإقداره له على الوفاءِ ببعضِ ما فات سابقيه. وهذا يحمّلُنا مَسؤوليّةَ البَصَرِ بِهذا الوفَاء. وِتلك مَسْؤُولِيّةٌ لا تقلّ عَن مَسْؤُولِيّتِهِ هُوَ بهذا الوَفاءِ. (١)

****

[الاستدلال بشاهد الحال على إعجاز القرآن وبيان وجوهه]

من بعد هذا الاستهلال يغدو الخطابيّ إلى بيان أنّه لا يبقَى لدى عاقل أن يتوقف في التسليم بأن القرآن أعجز من نزل فيهم من العرب الأقحاح ذوي اللسن والفصاحة فرسان الكلمة، ويستدل على أنه أعجزهم بشاهد لا ينقضُ ولاينقد:

« فأما أن يكون قد نقبت في النفوس نقبة بكونه معجزًا للخلق ممتنعًا عليهم الإتيانُ بمثله على حال فلا موضع لها .

والأمرُ في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقى صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهرًا لهم

---

(١) إذا ما كان الخطابي قد نصّ على أن القول في إعجاز القرآن قد أكثر الناسُ فيه قديما وحديثًا وذهبوا فيه كل مذهب ، فإن أبا فهرٍ محمود شاكر في مفتتح" مداخل إعجاز القرآن "يذهبُ إلى ان مصطلح" إعجاز القرآن " ممَّا لم يكن حاضرًا في ألسنة أهل العلم وطلابِه في القرنين الأولين ، وأنه مصطلح استولد في القرن الثالث ،بل يذهب إلى ان لفظ "الإعجاز "غاب من لسان الجاحظ(255 -150) هـ (فلم يجرِ فيما بلغنا من قولِه ، وإن ورد قوله "يقرّعهم بالعجز "

ولفظ "إعجاز القرآن "جاء في لسان أبي عبد الله محمّد بن يزيد الواسطي) ت306:هـ (فلعله هو أَوَّل من استخرجه) ينظر: مداخل إعجاز القرآن -ط -1:مطبعة المدني- -سنة 1423هـ ص28:

النكير ، زاريًا على أديانهم ، مسفهًا آراءَهم وأحلامهم حتى نبذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ،وأُريقت المهج ، وقُطعت الأَرحام ، وذهبت الأموال.
ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة....إلخ » (بيان إعجاز القرآن للخطابي ص :٢١)
لستهلاله بشاهد الحال من أنّه البرهان الذي لا يستطيع مشَاغبٌ أن ينوقف في التسليم به، هو برهان مشهود ، لا يحتملُ التأويل . فدلالته دلالة محكمة، وهذا من لقانة الخطابي . أنهى قضية إثبات إعجاز القرآن بضربة واحدة حصينة. فكانت عبارته «والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه.» إنّها كلمة الفصل.
لعلّ قائلًا يقول : لا يلزم من ميلهم إلى الطعان بالسنان إثبات عجزهم عن المعارضة باللسان ، لاحتمال أنَّهم مالوا إلى الطعان بالسّنان وسفكِ الدماء وإزهاقِ الأرواح ؛لأنهم رأوا أن في المعارضة تطويل أمد المكافحة، فسلكوا سبيل القتال من أنه أقصر، فهم يقضون على الدعوة في جولة واحدة، أما المقاولة فهي مظنة التطويل والمشاغبة، ومظنة ألّا يكون ثَمَّ مَن يحكم حكمًا موضوعيًّا نزيها بين ما جاء به بنيّ الإسلام - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – وما جاءوا به ؛ لذلك رغبوا في المقاتلة بالسنان عن المعارضة باللسان.
وما دام هذا الاحتمال قائمًا ، فالاستدلال بالحال ساقط، فما تطرق إليْه الاحتمال سقط به الاستدلال،
قد يقال ذلك لكن في هذا اتهامٌ صريح لهم بالسفه والحمق إذ يختارون إسالة الدماء وإزهاق الأرواح على المعارضة باللسان المقتدرين – فيما زعم- توفيرًا للوقت والجهد، ودرءًا للشغب لأن الوقت مهما طال ليس أهم من قطرة دمٍ تراق بغير حقّ.
ثُمّ إنّهم لما مارسوا المصاولة بالسنان ،وأيقنوا أنهم يهزمون فيها لِمَ لَمْ يعودوا إلى المعارضة باللسان التي يقتدرون عليها في زعمكم كيما يقضوا على الدعوة الإسلامية.أم أنهم في حمقٍ وسفهٍ يحملهم على ألا يرجعوا عن ضلالهم إذاتيقنوا منه .

والخطابي يُعقب بقوله «وهذا - من وجوه ما قيل فيه - أبينها دلالة وأيسرها مؤونة. وهو مقنع لمن [لا] تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه.».وقد صدق
يهديك إلى أن الاستدلال بشاهد الحال وإن كان كافيًا في إثبات إعجازِ القرآن، إلّا أنّه لا يَكتفي به من كانت نفسُه نفسُه لا ترضَى ولا تهدأُ إلّا بالعرفان الموضوعي الوثيق بكيفية وجوه الإعجاز،
وهذا ما تقوم له رسالة بيان إعجاز القرآن.

*****

وهذا الذي أبانه الخطابيّ من الاستدلال بواقع الحال قال به سابقوه ،ومعاصروه ، فأبو الحسن الرمانيّ عصريه (ت ٣٨٦هـ) جعل ذلك وجهًا من الوجوه التي يظهر بها إعجاز القرآن وجعله أول الوجوه السبعة: «ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتّحدي للكافة»
ومن قبل الرماني أبان الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ)عن ذلك في كتابه «حجج النبوة» قال:
« أمرُهم في ذلك لا يخلو مِن أحد أمرين:
= إمّا أن يكونوا عرفوا عجزهم وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم فرأوا أن الإضراب عن ذكره والتّغافل عنه في هذا الباب وإن قرعهم به أمثل لهم في التدبير وأجدرُ أن لا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف وأجدرُ أن يجدوا إلى الدّعوى سبيلا وإلى اختداع الأنبياء سبَبا، فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه وهو قوله عز ذكره {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا }[الأنفال:٣١] ([1])

---

[1]) هذه الآية تحتمل وجهين :
إما أن قائلها جدُّ سفيهٍ ، لإنّ أصغر غلام سيقول له، ولم لا تشاء ،وتنهى الأمر بدلا من المجالدة بالسيف؟
وإما أنه يشير إلى أنهم كانوا قادرين قبل التحدي، أما الآن فقد سلبت منهم المشيئة، ولو شاءُوا أي كانت لهم مشيئة ولم تسلب منهم لقالوا.
وهذا الوجهُ الآخر عندي بعيد. لأنّه يفضي إلى أن قائل هذا القرآن قادر على أن يسلب منهم المشيئة، وهذا لا يكون إلا لله تعالى،ولايمكن أن يكون ذلك في مقدورأحد من البشر فأفضى ذلك إلى التسليم بأن القرآن كلمة الله تعالى لا كلمة أحد من العالمين . سيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – أو غيره.

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ، ثُمَّ لا يَبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونَهم ، وهُم أشدّ خلق الله تعالى أنَفة وأفرطَ حَمية وأَطلبه بطائلة، وقد سمعوه في كلّ مَنهل ومَوقف!.

والنّاس موكلون بالخطابات مولعون بالبلاغات، فمن كان شاهدا فقد سمعه ومن كان غائبا فقد أتاه به من لم يزوده.

= وإمّا أن يكون غير ذلك ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها، لأنّه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء والدُّهاة والحكماء مع اختلافِ عِللِهم وبُعد هِمَمهم وشدّة عداوتِهم على بذل الكثير وصَون اليّسير، وهذا من ظاهر التدبير ومن جليل الأمور التي لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف، فكيف على الأعداء؟ لأن تحبير الكلام أهونُ من القتال ومن إخراج المال.

ولم يقل ان القوم قد تركوا مساءلته في القرآن والطعن فيه بعد أن كثرت خصومتهم في غيره! ويدلك على ذلك قوله عزّ وجلّ : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً }[الفرقان:٣٢]وقَوْلِه {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ }[يونس:١٥]{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ }[الفرقان:٤]

ويدلك كثرة هذه المراجعة وطول هذه المناقلة على أن التقريع لهم بالعجز كان فاشيا، وأن عجزهم كان ظاهرا، ولم يكن النبي صلّى الله عليه وسلم تحداهم بالنظم والتأليف ولم يكن أيضا أزاح علتهم حتى قال تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وعارضوني بالكذب لقد كان في تفصيله له وتركيبه وتقديمه له واحتجاجه ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه! ولو لم يكن تحداهم في كل ما قلنا وقوعهم بالعجز عما وصفنا، وهل هذا إلا تمديحه له واكثاره فيه لكان ذلك سببا موجبا لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه، إذ كان كلامهم وهو سيد عملهم والمئونة فيه أخف عليهم وقد بذلوا النفوس والأموال، وكيف ضاع منهم وسقط على جماعتهم نيفا وعشرين سنة مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم، وهذا أمر جليل الرأي ظاهر التدبير» ([1])

([1]) حجج النبوة . نشر ضمن رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

ومن بعد الخطابي أيضًا قال به القاضي عبد الجبار (ت:٤١٥ هـ)([1])
فالخطابي في هذا متبع لا مجتهد . واتباعه هذا أية على قوة الاستدلال به.
فكلّ ما جاء بعد الجاحظِ ذاكرًا هذا الاستدلال بواقع الحال هو متبعٌ له . وهو نهج في المحاجة فتي لا ينقد فضلًا عن أن ينقض . والاستلال به في الاحتجاج قد يعني عن طول أمد المحاجة.

*****

ما سبق قولٌ في الاسْتدلالِ والتراهان على تحقق الإعجاز ، وهو غير القول في «دلائل الإعجاز» جمع دلالة، لا جمع دليل ، فكما في كتابِ عبد القاهر ، فهو في بيان معالم ومعالم الأعجاز البلاغي وليس في الاستدلال على إعجاز القرآن،الذي تناوله في رسالة «الشافية» ، وهي أسبقُ تأليفُا من كتابه «دلائل الإعجاز» وتاليةٌ كتابه «أسرار البلاغة»وعلينا أن نفرقَ بين دليل وقوع الإعجاز ، ووجوه الإعجاز.
الرُّمانيُّ جعل ترك المعارضة وجهًا، بيْنا هو دليلٌ وبرهانٌ على وقوع الإعجاز، وهذا ما ذهب إليه الخطابي ، فكان أحكم من الرُّمانيّ
أمَّا وجوه الإعجاز فهي معالمُه التي يظهر منها،وذلك لا يكون إلا بعد التسليم بوقوع العجز الّذي برهن عليه ترك المعارضة بالإتيان بسورةٍ كسورةٍ من القرآن مع تأكيد التحدي واللجوء إلى المعارضة بالسبف.

⁂⁂⁂

[1]) الأصول الخمسة المنسوب إلى القاضي عبد الجباربن أحمد الأزد أبادي (ت: ٤١٥هـ) تحقيق فيصل بدير عون .نشرلجنة التأليف والتعريب والنشر- جامعة الكويت (ط:١) ١٩٩٨م ص: ٨٧ وشرحه تحقيق عبد الكريم عثمان. نشر مكتبة وهبة – القاهرة – ص:٥٨٨

[نقضُ القولِ بالصَّرفةِ]

ولمَّا قضى الأمر في البرهنة على أنَّ القرآن أعجز العرب ، فلزم إعجازه من بعدهم لأنّه من بعدهم إلى القيامة من دونهم فصاحة إبانةٍ عمد الخطابي إلى القول في بيان علة الإعجاز عند أهل العلم ، فبدأ بأ قربها في بيان وجه عند من سلم بإعجازه، بدا بدعوى "الصرفة"

ومفهوم " الصّرفة" أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته فلم يقدروا على ذلك، ولولا الصَّرفة لما أعجزهم القرآن، ولما أعجزهم أن يأتوا بمثله.

وبناءً على ذلك فالمُعجِز هو الله تعالى بقهره لا بقرآنه ، فسبيل الإعجاز عند القائلين بالصَّرفة هو قهر الله تعالى ، وليس القرآن، فالقرآن عندهم خلاء من أن يكون فيه ما يُعجز، ولو رفع الله تعالى قهره وسلطانه عن الناس وحلّى بينهم وبين ما كانوا عليه قادرين قبل نزول القرآن لكان لهم أن يأتوا بمثل سورة منه.

والصرفة هنا أهي صرفة عن كل قولٍ بليغ ،وإن لم يقصد به المعارضة أم صرفة عن القول البليغ عند قصد المعارضة؟

ليس يخفى أنّ القائلين بالصرفة لايطيقون أن يقولوا: صرفٌ عن كل قولٍ بليغ وإن لم يكن مقصودًا به المعارضة، لأن شاهد الحال يكذبهم، فهم مازالوا يقولون شعرًا بليغًا عليًّا في بابه، ولكنهم لم يقولوا إن هذا يعارض ما جاء به سيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ.

فالصرفة على هذا عنده صرفة عن القول عند إرادة المعارضة،وهذا يصور شيئًا من جلال الألوهية وعزها، وليس يصور إعجاز القرآن نفسِه.

يقُول الخطابي مبينًا عن معنى الصرفةِ عند القائلين بِها «وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أَي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورًا عليها ، وغير

معجزة عنها؛ إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات» ([1])

وهذا وجه متهافتٌ لا يسكن إليه لبيبٌ البتة ، فلو كان ذلك لكان القرآن صالحًا لأن يكون آية أي نبيّ غير سيدنا محمّد - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِه وصَحبه وسلّم - ،وأن ينزل في أي قومٍ ، لأنّه ليس هو المعجز عندهم ، بل المعجز هو قهر الله تعالى وسلطانه. وهذا لا يذهب إليه لبيبٌ .

وفوق هذا لو كان القرآن خلاء مما يجعله معجزًا سوى قهرِ الله وسلطانه، لما كان وجهٌ لأمر الله تعالى بتدبره أَوَ يتدبر ما هوخلاء مما لا يعجز عنه أحد، يتدبرون ماذا. فالأمر بالتدبر آية بينة على أن في القرآن ما لا يُمكنُ أن يقدر على مثله أحدٌ من العالمين.

والقولُ بالصرفة يتناقضُ أيضًا مع قول الله تعالى عن ذاته صفاته وأفعاله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(الشورى) والقرآن كلام الله وكلامه صفته، فكيف يمكن لأحد من العالمين أن يأتي بشيءٍ مثل ما هو صفته تعالى .

فالقول بالصرفة متهافت، ولكنّ الخطابي يعقبُ على القولِ بالصّرفة بقوله : «وهذا وجه قريب» وتعليقه هذا لا يفهم أنه يسلم به بل هو لا يأخذ به . قربه قرب في الاستدلال في سياقمجادلة من لا يذهبُ إلىأنّ القرآن معجز.

لا يستقيم البتة أن يسلم أحدٌ بالقول بالصرفة على هذا الوجه، ثم يقول بإعجاز القرآن ببلاغته، هما متناقضان، لأنّ القول بالصرفة يعني أن القرآن خلاء من أي شيءٍ لا يُمكن ألا يمتنع على العالمين الإتيان بِه ، والقول بإعجاز القرآن ببلاغته يعني أنّ الله تعالى أعجز ببلاغة القرآن لا بقهره وسلطانه

والخطابي وإن قال عن القول بالصرفةِ وهذا وجهٌ قريبٌ إلا أنه قَال:« دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء:٨٨]

---

[1]) بيان إعجاز القرآن .ص: ٢٢ ،وانظر البرهان الكاشف عنإعجاز القرآن .تأليف كمال الدين : عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانيّ (ت: ٦٥١هـ) تحقيق: خديجة الحديثي،وأحمد كطلوب، مطبعة العاني – بغداد(ط:١) عام ١٣٩٤هـ ص: ٥٣-٥٤

فأشار في ذلك إلى أَمر طريقه التكلف والاجتهاد وسبيله التأَهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدلّ على أن المراد غيرها ، والله أعلم. »
هذا يفهم أنّه معترضٌ على تفسير الصرفة بما فسرت به: صرف الهمة ، و فهل ذلك فيه إشارة إلى أنّ ثم مفهومٍ آخر للصرفة غير هذا هو أقرب ، فليست الصرفة بالقهر والسلطان ، فتكون الصرفةُ بأمرٍ فِي القرآن .؟

إذا ما كان الخطابي ذكر أن القائلين بالصرفة جعلتْ ثله منهم محلها الهمة، فإن من أهل العلم من جعل محل الصرف الملكة «العلوم» وكأنّهم يذهبُوا إلى أنّهم شاءوا المعارضة وحاولوا ، فلم يطقوا.

هذا الوجه متهافت لأنّ هذا يلزمه أن هذه العلوم التي لم يعينوها كانت قائمة فيهم قبل نزول القرآن وتحديهم بها كانوا يبدعون، فلما وقع التحدي صرفوا عنها أوْ صرفت منهم وأن فيما أبدع شعراؤهم،وخطباؤهم ما يصلح أن يعارض القرآن هذا وجه متهافت :
لو كان ذلك لكان فيهم من ادعى أن قصيدة كذا أو خطبة فلان كمثل سورة من القرآن، ولشغبوا بذلك، ولنقل ذلك ، ولمَّا لم يكن شيْءٌ من ذلك دلَّ على أنّه لم تكن قبل نزول القرآن والتحدي عندهم العلوم التي يمكنهم بها معارضة القرآن فصرتْ عنهم.وفوق هذا سيكون المعجز هو منعهم،وليس القرآنَ

نعن كانت عندهم علوم يبدعون بها الشعر والخطب، بيد أن هذه العلوم ليست هي التي يمكن أن تقع بها المعارضة

فإن قيل إن الصرف بسلبهم العلوم التي بها يتحقق الإعجاز، لا العلوم التي يتحقق بهاا إبداع الأدبي شعرًا ونثرًا وهذه العلوم لم تكن لهم قبل نزولِ القرآنِ وتحديهم، ولا بعده. فجاء القرآن بعلوم لم يكن لهم شرونقير من العلم بها .

إن قبل فإنه يفضي إلى أن القرآن معجز بما فيه من العلوم البيانية والعقلية والقلبية.... والعالمون أجمعون لا يملكون هذه العلوم المستحقة ،لأنهم مخلقون، والقرآن كلام الله تعالى وصفته، وليس لمخلوق أن يأتي بشيْءٍ من مثل كلام الله تعالى: صفته ،والله تعالى في سورة الشورى يقول«لَيْسَ كمثْلِهِ شَيء» أي ليس كمثل ذاته وصفاته جميعًا وأفعاله

شيْءٌ من ذات وصفات وأفعال أحدٍ من العالمين، فيتضمن هذا ليس كمثل كلامِه كلام غيره، وهذا نفي عامٌ ليس ما يخصِّصه وهذا هو الَّذي لا يُرَدُّ([1])

وهذا هو الذي يثبت أن القرآن ليس من قول أحدٍ من البشر، لأنه لا يقوله إلا الّذي هو العليم الخبير بهذه العلوم وليس ذلك إلا الله تعالى.

فالذي يقول إن القرآن أعجز لأن العباد يفتقدون العلوم التي لا بُد من الإحاطة بها ليكون مثل القرآن في بلاغته وفي ما اشتمل عليه من العلوم والمعارف والمعاني التي عليها تستقيم حركة الحياة لأنهم مخلوقون ، علومهم قليلة وإن تظاهروا – من يقول بذلك فقد قارب

*****

(جمعة القول)

الأعلى أنَّ الله تعالى صرفهم بما في القرآن من بلاغة لا طاقة لأحدٍ من العالمين أن يأتِي بمثلها، بل لا طاقة للعالمين أجمعين أن يأتوا على العلم بها جميعها ، فيكشفوا جميع أسرارها ، فلا يبقى لها سرّ إلا أحاطوا به . ويكون قوله تعالى في شأن القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) داخلًا فيه حفظه ببلاغته وعلومه وأخباره وأحكامه وآدابه وبكلِّ شيْءٍ فيه من أن يأتي أحدٌ بشَيْءٍ من القول يضارع أقصر سورة من صوره.([2])

[1]) ينظر كتاب : المغني في أبواب العدل والتوحيد (إعجاز القرؤآن) الجزء السادس عشر . قوم نصوصه: أمين الخولي. الإدارة العامة للثقافة- وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مصر ج!٢١٨/٦-٢١٩

[2]) جاءت آية سورةِ الحجر{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) على نسقٍ تَام الدلالة على المراد محكمِها. وكان يمكم في غير القرآن أن يُقال: "إنّا نحنُ نزَّلنا الذكره وحافظوه." دون إعادة (إنا) فيكون (حافظوه) معطوفًا على خبر (نا) في (إنّا) الأولى، فيكون البيان أوجز في ظاهر النظر

أنت أن تلبثت متبصرًا رأيت الآية الكريمة اشتملت على جملتين اسميتين عطفت الثانية على الأولى وأكدت الأولى(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) بثلاث مؤكدات «إنّ»«نحن»«بناء الخبر الفعلي على المسند إليه »

وأكدت الثانية(إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) بأربع مؤكدات«إنّ»«اللام»«تقديم المتعلّق :له»«اسمية الجملة»

هذا النّسق يهدي إلى أنّ حفظه عديل تنزيله، فكما أن تنزيله فعلٌ إلهي لا قبل لأحد أن يصنع ما يفسده ،كذلك حفظه من كل شَيْءٍ لايليقُ به ومنها أن ياتي بأحد من الكلام يمكن لأحمق سفيه أن يشغب بأنّه يعارضُ سورة من القرآن ثم لا يجد أولى النهى يزهقون باطله، ويلقونه في الدرك الأسفل من المعرّة. وقوله تعالى : (وإِنَّا لَهُ

هذا المعني إن قيل به فهو عين القول بإعجازه ببلاغتِه. فالصرف فعلُ الله تعالى،والمصروف به هو بلاغة القرآن ، وليس بقهر أو أي شيْءٍ خارجٍ عَن القرآن .
قول الخطابي عن «الصّرفة»: "وجه قريب" أيْ قريب الاستدلال به في باب المحاجة،وقطع اللجج ، فمن أراد أن ينهي النزاع في أنَّ القرآن معجز أو غير معجز، كان أقرب الطّرق إلى بلوغه أن القرآن معجز أن يقول بالصرفة، بيْنا الطّرق الأخر

لَحَافِظُونَ) يلحظ قوله تعالى عن القرآن:(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)[فصلت]

وممّا يحسن استحضاره في فؤادك ليرى معالم رحيمية الله تعالى بهذه الأمة المحمدية أنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ما من شيْءٍ كان على الأمة عسرًا فعله ،وكان فعله مهمًا أو ضرورة إلا تولاه هو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عن هذه الأمة

ألا ترَى أنه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – قد تولى عنا حفظ كتابه ،بينا الأمم السوابق وجودًا وكل إليها حفظ كتبه إليها، فما اسطاعوا إلى ذلك، بل باتوا هم الذين يحرفونها عن مواضعها {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء...) (المائدة: ٤٤)

وكذلك لما أمرنا بالصلاة على سيدنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب:٥٦] **ليشرفنا** بهذا ،لا لأنّ نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – بحاجة لصلاتنا ،**وليجزينا** على ذلك بأن يصلى - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – علينا عشرًا بكل واحدة ، وليسلم علينا سيدنا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – بكل تسليمة

، ومن البيّن الّذي لايخفى أن صلاتنا عليه لأمر لا نطيق الوفاء به ، لأنّا لا نعرف قدره - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – كيما نوفيه حقه، فلما سأله الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:
« يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّى عَلَيْكَ قَالَ « قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » . (متفق عليه)
أحالهم على أن يبتهلوا إلى الله تعالى أن يتولى هو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ذلك لعظيم قدر سيّدنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ .

ومما يحسُن – أيضًا - استحضارُه في فؤادك أن تكفُّل الله تعالى حفظ كتابه متضمنٌ حفظ رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – إلى أن تكتمل الرسالة، ومتضمّن حفظ أمته إلى قيام الساعة، فمادام القرآن محفوظًا إلى يوم القيامة ، فإن القائمين به، والقائم فيهم من أهل الله تعالى هم أيضًا في كنف تعهد الله تعالى بحفظ كتابه، فمن أراد أن يحفظه الله تعالى وأهل بيته فليكن من أهل القرآن إيمانًا وترتيلًا وتفهمًا ، وتأدبًا ودعوة به إليه إيمانا واحتسابا .

يمكن أن تفتح عليه أبوابًا من الشّعب واللجاجة ، فيطول أمد المحاجة والمجادلة. ومن ثم يعرف في باب المحاجة والمجادلة ما يعرف بالتسليم الجدلي، فهذا التسليم الجدلي ، لا يلزم المسلم القول به..هذا في باب المحاجة أما في باب العرفان بوجوه الإعجاز، فليس بقريب



(الإعجاز بالإنباء بالغيب]

عرض الخطابي لهذا الوجهِ كما عرضه في زمانه الرماني(ت: ٣٨٦هـ) في «النكت»و جعله خامس السبعة ، والخطابي لم يدفع وجه الإعجاز بإنباء القرآن بما هو غيبٌ سواء كان غيبًا سابقًا أو غيبًا بما سيكون ، وإنّما لم يرتضِه الوجهَ الأعم، من أنّه وجهٌ جزئيّ يكون في بعض القرآن لا في كله ، وما كان جزئيّا لا يصلح التعويل عليه، فالشَّأن فيما يصلح الاستدلال به الاطراد.

يقول: « وَزَعَمَتْ طائفةٌ أَن إعجازَه إنّما هو فيما يَتَضمّنه مِن الإخبار عن الكوائنِ في مستقبلِ الزّمان نحو قولِه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ} (الرّوم:١- ٤)

وكقولِه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ }[الفتح:١٦]ونحوهما مِن الأَخبارِ الّتي صدّقَت أقوالَها مواقعُ أكوانها.

قلتُ: ولا يشكّ في أنّ هذا وما أَشبهُه من إخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنّه ليس بالأَمر العامّ الموجودِ فِي كلّ سورةٍ مِن سُور القرآن ، وقد جعل - سُبحانَه وتَعالى - فِي صِفة كلّ سورةٍ أن تكونَ مُعجزة بنفسِها لا يَقدر أَحدٌ مِن الخلق أَن يأتِي بمثلِها ، فقال: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين}[البقرة:٢٣] من غير تعيين ، فدلّ على أَن المعنَى فيه غير ما ذهبوا إليه.»([1])

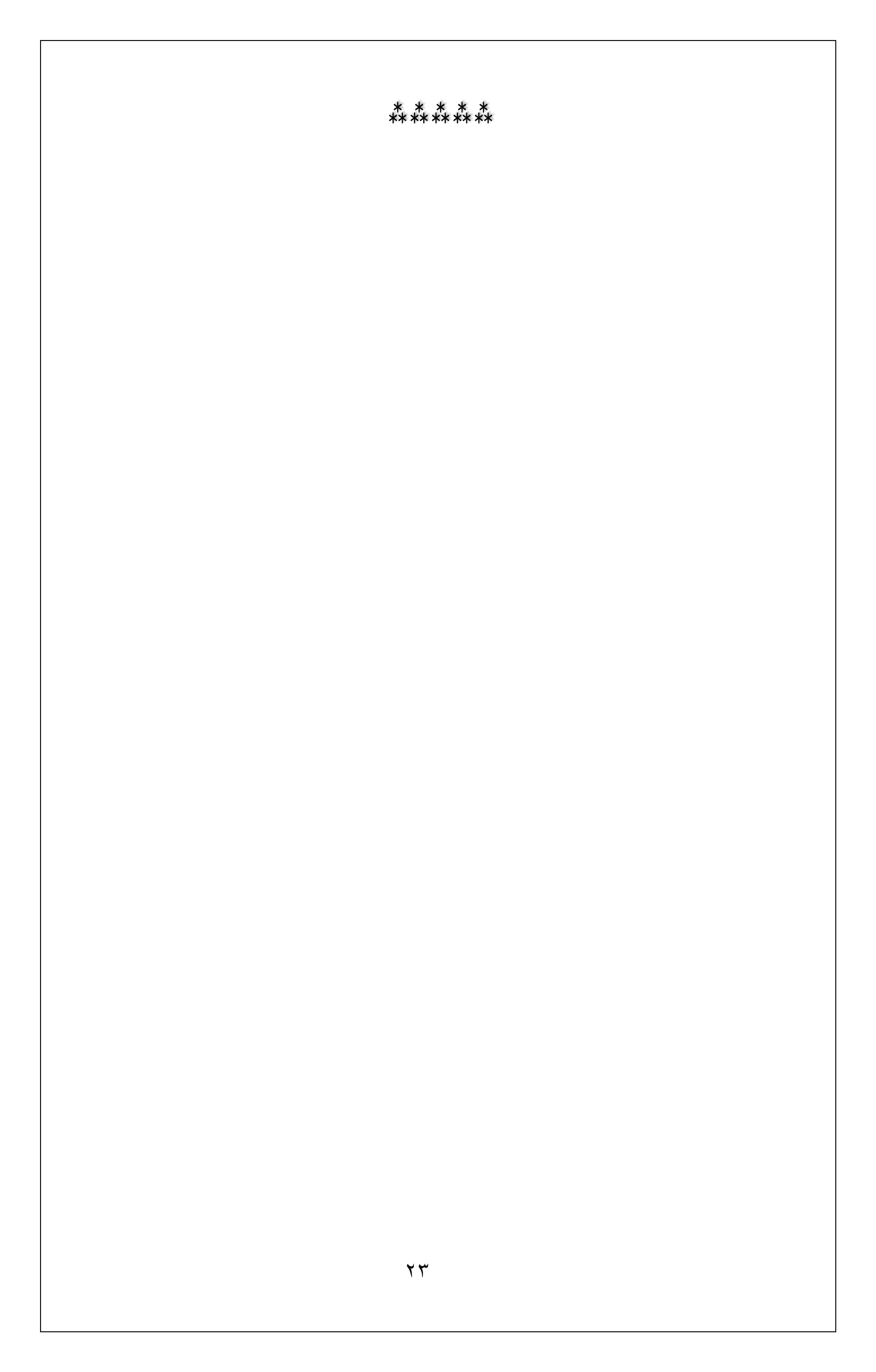
ويمكن أن نُدخل في هذا الوجه ما يسمّى في زماننا بالإعجازِ العلمي في القرآن بمعنى إشارته المحكمة إِلَى الحقائق العلمية الّتي اكتشفت في زمامنا ، ولَم يكُ لأحدٍ من قبل ، ولاسيّما في عصرِ المبعث العرفان بِها ، ولَو على سبيلِ ما يسَمّى بالخيال العلمي .

هذا الوجه سيستمر ما استمرّت الحياة .

وممَّا لا يخفَى أنَّ القرآن ليس معقودًا لذلك. إنّما هو معقود لهدايةِ النَّاسِ إلى الحقِّ وإخراجهم من الظُّلماتِ إلى النّور،واشتماله على الإشارت المُحكمة إلى بعضِ الحقائق العلميّة التي اسكشفت في زمانِنا لم يكن القرآن مسوقًا إليها سوقًا أصليًّا.

---

[1]) بيان إعجاز القرآن.ص ٢٣ ، وانظر. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن .تأليف كمال الدين الزملكانيّ (ت: ٦٥١هـ) ص:٥٥-٥٦



****

[وجهُ الإعجازِ ببلاغتِه]

هذا الوجه قائمٌ في كلّ كلمةٍ في سياقها، وكلُّ جملة ، وكلّ آيةٍ ، وكلّ نجم ، وكلّ مَعقدٍ من كلّ سورة، وفي كلّ سورة . فهو الوجهُ الأعم الأشمل ، وهو الذي قال به جمهرة أهل العلم ، ولا سيما في زماننا هذا

يقول « وَزَعم آخرون أَن إعجازَه مِن جهةِ البلاغةِ ، وهم الأكثرون من علماءِ أَهل النظر » (بيان إعجاز القرآن. ص٢٤)

قولُه:«زعَم» لا يُفاد منه تضعيفُه ذلك الرّأي ؛ لأنّ "زعَم" لَيْست بمحصورة في هذا المَعنى ، وإنّما يُفهم ذلك بقرينةٍ ، وهِي تأتِي لمَا هو حقٌ ، وكان سيبويهِ يقول: «زعم الخليل» وما كان له أن يذهبَ إلى أن مقالة الخليل مُتهافتة.

يقولُ في « باب ما يَعْمَلُ عَمَلَ الفعل ولم يَجْرِ مَجرى الفعل ولم يَتمكَّن تمكُّنَه»، « وذلك قولُك ما أَحْسَنَ عبدَ الله. زعَم الخليلُ أنّه بمنزلة قولك : شيْء أحسنَ عبدَ اللهِ ، ودَخَلَه معنى التعجُّب.» ([1])

وقول الخطابيّ «وهُم الأكثرون مِن عُلماء أهلِ النَّظرِ »

يشيرُ إلى أنّ القولَ بأنَّ بلاغَةَ القُرآنِ هِيَ وجهُ إعجازِه أخذَ بِهِ كثيرٌ مِن أهلِ النَّظرِ . أيريدُ بأهلِ النظر علماء الكلام من الفرقِ المختلفة أمْ يُريدُ بهم العلماء الذين ينظرون فيما يعرضُون له، ولا يُقلدون غيرهم، فهم يصدُرون عن نظرٍ ومفاتشةٍ ومراجعةٍ ، فانتهى بهم ذلك إلى القولِ بأنَّ وجهَ إعجازِه بلاغتُه؟

محمود شاكر في(المداخل) يذهب إلى انَّ أهل النظر هم أهل الكلام، ومن البيّن أنّ الخطابيّ كان نفورًا من النظر في نتاجِ عقُولِهم، وقد حذر منهم في كتابِه(الغنية عن الكلامِ وأهلِه) فلعلّه يريدُ بأَهلِ النّظرِ الَّذين ينظرون ويفتشون ... غير أنّهم برغم لذلِك لم يبلغُوا هذا النَّظر غاية المرمى ، بِدَلِيلِ قولِه بعدُ: "ووجدْتُ عامّة أهلِ هذِه الْمقالة قدْ جروا فِي

---

[1]) الكتاب . تأليف أبي بشرسيبويه : عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بولاء،(ت: ١٨٠هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ،نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة . الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ .ج:١ص ٧٢ ،وانظر ص: ١٠٦ ، ٢٨٦

تسلِيمِ هذِهِ الصّفةِ للقرآن علَى نوعٍ من التّقليدِ ، وضرب منْ غلبةِ الظّنّ دونَ التّحقِيق له، وإحاطةِ الْعلمِ بِهِ."(بيان إعجاز القرآن: ٢٦)

هذا يعلي أنّ جمهرةً ممَّن قال بذلك الوجه على الرَّغم منْ أنّه مِنْ أهلُ النّظر لم يكن بصيرًا بشَان هذه الجهة. ذلك أنّ العلم به أمرٌ لا يُطيقُه كل أحدٍ ، بلْ هو بحاجةٍ جدّ بالغةٍ من الّلقانةِ والذّوقِ .

فهذا من الخطابيّ دالٌ على إدراكه وعورة القولِ في ضبط حقيقةِ البلاغةِ وكيفيتها وعللها ، فذلك كما يقول شاكر محفوفٌ بالإبهام لا يثبت على النظر، وقد التفت الخطابي إلى تلك الحقيقة ([1])

وعبدُ القاهر من بعد الخطّابيّ يؤكد وعورة ذلك ، يقول:

" واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ ، ولا يَجدُ لديه قَبولاً، حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ، وحتى يكونَ ممن تُحدِّثُهُ نفسُه بأنَّ لِمَا يُومئُ إليه من الحُسْن واللطْف أصْلاً، وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلامِ، فيجَدَ الأريحيَّة تارةً، ويعْرى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبْتَه عَجِبَ، وإذا نَبَّهْتَه لَموضع المزيةِ انْتَبَه.

فأما من كان الحالانِ والوجهانِ عنده أبداً على سَواء ، وكان لا يفقد من أمرِ "النظمِ" إلا الصحَّةَ المُطلقةَ، وإلاَّ إعراباً ظاهراً، فما أَقَلَّ ما يُجدي الكلامُ معه. فَلْيكُنْ مَنْ هذه صِفتُهُ عندكَ بمنزلةِ مَنْ عَدِمَ الإحساسَ بوزنِ الشِّعر، والذوقِ الذي يُقيمه به، والطَّبعَ الذي يُميِّزُ صحيحَه من مكسورِه، ومَزاحِفه من سالِمِه، وما خرجَ مِن البحرِ ممَا لم يَخْرُجُ منهُ في أنك لا تتصدَّى له، ولا تتكلَّفُ تعريفَه، لِعلْمِكَ أنه قد عدمَ الأداةَ التي معها يَعرفُ، والحاسَّةَ التي بها يَجدُ. فليكُنْ قَدْحُكَ في زنَدٍ وارٍ، والحكُّ في عُودٍ أنت تطمعُ منه في نار. ([2])

ويقُول « اعلم أنَّ البلاءَ والدَّاءَ العَياء، أن ليس عِلم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذِي تستطيعُ أن تُفْهِمَه مَن شئْت ومتَى شئْت، وأن لست تملك من أمرِكَ شيئاً حتَّى تظفرَ بمَنْ له طبعٌ إذا قدحْتَه وَرَى ، وقلبٌ إذا أرْيتَهُ رأى فأمَّا وصاحبُك مَنْ لا يرى ما تريه، ولا يهتدِي للذِي تهديه، فأنت معه كالنَّافخ في الفَحم من غير نار، وكالمُلتمس

[1]) المداخل لشاكر ص ٨٤ (م.س)

[2]) دلائل الإعجاز.ط:شاكر:ص/٢٩١

الشَّم من أخشم ، وكما لا تُقيم الشعرَ في نفسِ مَن لا ذوق له ، كذلك لا يفهم هذا الباب مَنْ لم يؤْتَ الآلة الَّتي بها يَفْهم إلاَّ أنّه إنّما يكونُ البلاءُ إذا ظنَّ العادمُ لها أنَّه قد أويتها، وأنه ممَّنْ يكملُ للحكْم ويصحُّ منه القضاءُ، فجعل يخبط ويخلط، ويقول القول لو علم غِبَّه لاستحْيى منه»([1])

عبدُ القاهر في هذا آخذٌ بما أخذ به أبو سليمان الخطّابيّ أو بما أخذ به من سبق الخطابيّ ، وهذا يهدِي إلى مكانةِ هذا القول ، فتوارُده على مثْلِ هذين العقلين أدلّ عن موضوعيّته ومكانتِه . وأنّه ليس كلّ واحدٍ بأَهلٍ لمثْلِ هذا ، فحقّ لمن لمْ يكنْ منْ أهلِه أن يحاجز نفسَه عن القولِ بغيرِ علم ، أو حقَّ له أو عليْه أن يسعى إلى أن يمتلك تلك القدرة بالتعلّم والدُّربة . وما يُمكنُ امتلاكُه كلّه يُمكن امتلاك بعضِه ، وهو أعلى من تركِه بالكُليّة.

*****

والخطابيّ يذهبُ إلى أنّ كلَّ كلامٍ بليغ فيه معنًى أي فِيهِ أمرٌ بِهِ يكونُ متميّزًا عن غيرِه من سَائِرِ الكلام البليغ ، فالكلام البليغ لا يعرفُ التناسخ ؛ لأنّه يصدر عن صدرٌ جاشّ بالمعانِي المتولّدة فيه مِن حسن النظر ، والمتغازرة من ديمومة التبصّر، وفحولة التَّدبر فيما هو منشغلٌ بِه .

ما كان كذلك لا يُمكنُ أن يتناسخ أو يتشابه ، بل لابدّ أن يكون ذا خصائصَ كاشفةٍ عن مناطات التَّفرّد وأسبابها ، وهذا يعنى أنَّ لكلِّ كلامٍ بَليغٍ خصُوصيّة ، وهَذه الْخصُوصِيّة يترتبُ عليْها خصُوصيّة في المزايا والعطايا المتوافِدَة منْ هذا الكلامِ البليغ .

وهذا يضعُ على كاهلِ كلّ بلاغيّ مَهْمُومٍ بالتّبصُّرِ فِي البَيان البليغِ أن يُبرزَ لنا خصَائصَ هذا البيانِ الْبَليغِ الّذي هُو قائمٌ لتبصّرِه وتدبّره ، فمن لمْ يفعل ، فما أحسَن لنفسِه أولاً وللبيانِ البليـغ الّذِي يدرسُه ثانيًا ولقارئه أو سامعِه ثالثًا.

وبهذا يتحقّقُ للنظرِ البلاغيّ إذا ما التزَمَ بذلك سمة "التراكميّة" : التصّاعد الرأسيّ الذي يبنى فيه القولُ بعضُهُ فوقَ بعضٍ ، والّذي يتحاجزُ عن جعلِ القول بعضِه بجانب بعضٍ

[1]) الرسالة الشافية . ملحقة بكتاب دلائل الإعجاز، قرأه محمود شاكر .ص(٦٢٦ فقرة(٥٠)

فينشأُ التّمدّد الأفقي ، الّذي هو أقربُ إلى التناسخ والتشابه العقِيم. والتمدّد الأفقي في العلم شبيه بالتمدّد الأفقي في الأجساد ([1])

ولذا نعَى على منْ قال بأن جهة إعجازِه البلاغة ، فَإذا ما سُئلَ عن تحديد هذه البلاغة التى اختصَّ بها القرآن ، الفائقةِ فى وصفِها سائرِ البلاغات ، وعَن المعنَى الّذى يتميّز بِه عَن سائرِ أنواع الكلامِ الموصوفِ بالبلاغة قَال: " إنّه لا يمكنُنا تصويرُه ، ولا تحديدُه بأمرٍ ظاهرٍ نعلُم بِه مُباينة القرآن غيره من الكلام. (٢)

وَإنّما يَعرِفُهُ الْعَالِمون بِهِ عِندَ سَماعِهِ ضَربًا مِن الْمعرِفةِ لايُمكن تَحديدهُ ، وأحالُوا عَلَى سَائرِ أجناسِ الْكلام الّذي يَقعُ مِنْهُ التّفاضل ، فتقَعُ فِي نّفُوسِ الْعُلماء بِه عِندَ سَماعِهِ مَعرِفةُ

---

[1]) من قبيل التَّمدد الأفقي في العلم منهج الشروح والحواشي والتقارير والتنبيهات،وهى من باب خدمة السِّفر الذي علقت عليه،وليس من باب خدمة العلم ذاتِه، ولذا ليس له تأثير قوي في تطور حركة العلم الرأسية. وبرغم من ذلك هي ضرورة في كل طور من أطوار نماء العلم تصاحبه.

وهذه الكتب : الشروح وما إليه هي إلى النقد العلمي أقرب منها إلى البناء الرأسي للعلم،وتأتي أهمية هذه المؤلفات : الشروح وما إليها من أنها تعلم القارئ البصر ببيان المؤلف ومدى دقته تفكيرًا وتعبيرًا ، فهي من قبيل منهاج قراءة الأسفار،ومن رغب عنها فقد فاته خير كثير لا يرغب عنه إلا مغبون.

([2]) سيبقى ذلك ما بقيت الحياة،ولن يستطيع العالمون أجمعون متظاهرين أن يحيطوا بأسرار إعجازه إحاطة لا مزيد عليها. فذلك وجه من وجوه إعجازه نصّ عليها ما نسب إلى سيدنا على - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – من قوله في القرآن :« هُوَ الَّذِى لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِى لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ) (الجن)» سنن التركذي: فضائل القرآن)(وسنن الدارمي: فضائل القرآن) وفي رفعه مقالٌ

يقُول صاحب «في ظلال القرآن» :« إنّ في هذا القرآن سرًا خاصّا، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها. إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن. يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير. وأن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا، ولكنه على كل حال موجود.

هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره:

أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟!

ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء.. ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله:» (ص: ٣٣٩٩) .

ذلِكَ ،ويَتمَيّز فِي أفهامِهمْ قبيلُ الْفاضل مِن الْمفضُول مِنْه ." (بيان إعجاز القرآن ص ٢٤)

في هذا إشارةٌ منْهم إلى أنّ المعنى الذي به فارقت بِه البلاغةُ القُرآنية سائر البلاغاتِ الأُخر أمرٌ قائمٌ حاضرٌ ، لا يغيبُ ،بيْد أنّهم لا يملكون الأدوات القادرة علَى التّصويرِ والتّحديد ، لِعجزٍ مِنْ جهتهمْ أولاً ، وللطافةٍ في هذا الْمعنى من أخرى ، وكأنهم يضيفون إلى وجوهِ إعجاز البلاغةِ القُرآنية وجهًا آخر ، هُو إعجازُ النَّاظرين عن تصويرِ المعنى الذي بِه فَاقتِ البلاغةُ القُرآنية ، وأعجزتْ ، وتحديده بأمرٍ ظاهرٍ.

قد يكون هذا وجيهًا منْ وجهٍ غيرَ أنّ الأمرَ علَى غيرِ ذلك ، لأنّ هذا يؤدّي إلى مَشرُوعيّةِ الانصرافِ عن التبصّر والتّدبيرِ في إعجاز البلاغةِ القُرآنية، لو قيلِ من معانِي التميّز وأسبابِ الإعجازِ ما يتسامى على التصوير والتحديدِ عند جَمْعٍ من أهلِ العلمِ ، وتتراءى بعضُ معالِمه غائمة عند بعضٍ لكان أُقرب ، فكلّ متبصّرٍ في البيانِ القُرآني يجدُ من نفسِه هذا يجد أنّ الأمر فوقُ طاقاتِه الفكرية وإمْكانَاتِه الذَّوقِيّة وأدواتِه التَّبْيينيّة، وهذا قد لا ينسحبُ علَى آخر في القضِيّة نفسِها، فما هو غائمٌ عندي قد يكون جليًّا عندَ غيري . وما يكونُ غائمًا عندي يومًا هو جليٌّ عندي أنا في يومٍ بَعْدَه.

وأمرٌ آخر لا يتوقّف فيهِ أحدٌ فضلاً عنْ أَنْ يدفعَه :لا يُمكن لأحدٍ أو جمعٍ فِي أيّ عصرٍ أومِصرٍ أنْ يحيطوا بهذا الّذي بِه فاقتِ البلاغةُ القرآنية وأعجزتْ ، لا إحاطةَ تصوّر ، ولا إحاطةَ تصويرٍ وإبانةٍ وتحديدٍ ، وحقًّا لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يُحيطوا بخصائصِ بلاغتِه التَّركِيبيّة والتّصويريّة، وأن يُحيطوا بالمزايا والعطايا الإيمانيّة لَن يسطِيعُوا إلى ذلك سبيلاً ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ونصيرًا حتّى تقُوم السّاعةُ . هذا وجهٌ قاهرٌ ظاهرٌ باهرٌ منْ وجوه إعجازِ بلاغتِه .([1])

---

[1]) لو أن كل من لا يؤمن من أهل الأرض بالقرآن كتابًا من عند الله تعالى آية على صدق نبوة سيدنا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – اجتمعوا وتظاهروا على أن يستكنهوا ويحيطوا بكلّ الخواص والتركيبية والدلالية ومزاياها ومعانيهاالإحسانية في سورة واحدة بحيث يستحيل على المؤمنين به أن يضيفوا شيئًا لما أستطاعوا أن يحيطوا بلذط

ليس الإعجاز بمنحصر في أن يأتوا بسورة مثل أقصر سورة من القرآن،بل الإعجاز أيضًا أن يحيطوا بكل ما تتضمنه سورة واحدة من سوره من المعاني الإحسانية .هذا وجه من وجوه إعجاز القرآن قلّ من يشيرُ إليْه

وغيرُ خفيّ أنَّ القدرة على أن تتبيّن معالمُ الأسرارِ في القلبِ ثُم لا يتمكنُ اللّسانُ الإبانة عمّا تراءت معالِمه فِي القلب أمرٌ قالَ بِه فحولٌ . قالَ به الشّافعي ، وهُوَ مَن هُو . " يُخبرُ يونسُ بنُ عبد الأعلى : كلّمني الشّافعي مَرّةً في مسألةٍ ، وتراجعنا فِيها، ،فقالَ :إنّي لأجدُ فُرقَانَها فِي قَلْبِي ، وما أقدرُ أنْ أتبيّنه بِلسَانِي"(1)

يقُول الشّافعيّ ذلك وهو الذي قال فيه ثعلب:" الشافعيّ لا تؤخذُ عنْهُ اللغةُ ، هو ممَّا تؤخذُ مِنْه اللغة"

وقال تلميذه الرّبيع بن سليمان يقُول :" لَوْ رَأَيْتَ الشَّافِعِيَّ وَحُسْنَ بَيَانِهِ، وَفصَاحتِهِ، لَعَجِبْتَ، وَلَوْ أَنَّهُ أَلَّفَ هَذِهِ الكُتُبَ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ الَّتِي كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَعَنَا فِي المُنَاظَرَةِ، لَمْ نَقْدِرْ عَلَى قِرَاءةِ كُتُبِهِ لِفَصَاحتِهِ وَغَرَائِبِ أَلفَاظِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي تَأْلِيفِهِ يُوَضِحُ لِلْعَوَامِّ"(2)

وقال الجاحظ:" نظرتُ فِي كتبِ هؤلاءِ النّبغةِ الذين نبغُوا في العلمِ فلمْ أرَ أحسنَ تأليفًا من الْمطلبيّ ، كأنَّ كلامَهُ ينظمُ درًا إلى درٍّ"(3)

فهذا دالّك على أنّه ما من أحدٍ إلا والعجزُ عن الإبانةِ عما يقُومُ في صدرِه ،مخادنه لا يفارقُه ، وكانّه آية على بشريّته وعجزِه ، فكيفَ إذا ما كان التي توارد عليه ضربٌ من لطائف المعاني وطرائفها ،وأهل البصر يقُولون إذا ما اتسعتِ الرؤيةُ ضَاقتِ الْعبارةِ ، فدقة المعاني ولطفها وطرافتها قد تؤدّي إلى تلجلج اللسان.

ومن البيّن أنَ جلّ ما كان إدراكه أداته العقل الصِّرف الذي يتقاربُ فيه الناسُ على اختلاف معتقداتهم وعلاقتهم بخالقهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – السبيلُ إلى الإعرابِ عنه ميسورٌ، بيْنما ما كان إدراكه القلبُ أو العقلُ والقلبُ معًا، فالغالبُ أنّ السبيل إلى الإعراب اللساني عنه يكون غير ميسور، ولذا يعجز الإنسان عن تعريف كثير من المعاني النفسية

---

(1) تاريخ دمشق، لأبي القاسم ابن عساكر ،تح عمرو بن غرامة العمروي ،ط:١٤١٩هـ - دار الفكر بيروت – ج٥١ص٣٧٠

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبيّ ، تح مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط: ط(٣) سنة ١٤٠٥ - نشر: الرسالة ج١٠/٧٤

(3) آداب الشافعيّ ومناقبه لأبي حاتم الرازي ، تح عبد الغني عبد الخالق .ط(١) ١٤٢٤هـ - دار الكتب الْعلمية – بيروت .ص :٦٣

أو وصفها كالحب والخوف ونحو ذلك ، فهي ممّا تعرف بآثارها، أمّا حقائقها فالسبيل إلى ذلك غير ميسورٍ. ([1])

جمعة القول " لسنا ندفع القول بأنّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بما جاء عليه القرآن من البلاغة قد صرف أفئدة أولي النّهى عن أن تعتقد قدرتها عن أن تأتي بسورة كمثل سورة من القرآن في بلاغتها أيّا كانت المعاني التي يُضمِّنونها لِما يرونه من جلالٍ نظم القرآن وجماله فهو فوق طاقة البشر تفكيرًا وتعبيرًا ، أولو النهى مصروفون ببلاغة القرآن عن أن يقولوا متظاهرين سورة كمثل سورة من القرآن . فالله تعالى هو الصّارف ، أمَّا المصروف به إنما هو بلاعة القرآن نظمًا وفصاحةً ، وكلّ شيْء فيه . وفي كلّ زمان تظهرُ للناس معالم بيناتٍ من إعجاز القرآن ، ولا يغفُل عن هذه المعالم الجلية إلا عَمِيّ .([2])

****

[يتـــبع الحلقة الثانية إنْ شَاء الله]

---

[1]) في عجز الإنسان مهما علا قدره في العلم،وأحاطته بكثير من فنونه وتمكِنه من البيان فهمًا وإفهاما عن الإعراب بلسانه عن بعض ما هو قائمٌ فيه،وآخذ بختاقه آية على عظيم ضعفه ،وجهله وأنه عبدٌ لا حول ولا قوة له إلا بخالقه ،وهذا من رحمانية الله تعالى ورحيميته أن يقيم فينا ما يذكرنا دائما بالحقيقة النورانية: إنما أنت لله عبدٌ ، فلا تعدُ طورك، فالزم غرزك.

[2]) حرًى بك طالب علم أن تخادن ما كتبه الشيخ أبو فهر محمود محمد شاكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في كتاب« مداخل إعجاز القرآن» وأن ترقب فيه منهاجه في إدارة الحوار ،ومحاولته تخيل في ما يجري في النفوس حين تنزع إلى مذهب ، وما يبعثها على ذلك ، ومسلكه في توكيد ما يذهب إليه،ومحاولته عرسه في فؤاد القارئ، ومنهجه في التعبير، وتوظئفه الإيقاع النغمي في التأثير عليك ، وإقامته لك في مقام الرهبة . فقد كان لقلم الشيخ من الهيبة ما لا ينكر قارئُ لما يرقن.

والحق أن كتابه «مداخل إعجاز القرآن» بحاجةٍ إلى أن تعقد له دراسة موسعة ، ترسم معالم وملامح عقل الشيخ ونفسه ولسانه ، وإذا كان الله تعالى لم يمن عليك بأن تجلس بين يديه،كما لم يمن عليّ بذلك فيمكنك أن تراه عقلًا ونفسًا ولسانا في كتبه،وهذا شأن العلماء.